الزمن وخلق الكون والحياة في الدّين والعلم*

د. رابح جابة ✍

إنّ العلم لم ولن يصل إلى نهاية ما دام هناك وجود للإنسان على الأرض، لأن الحقيقة العلمية هي حقيقة نسبية لمدة زمنية معلومة، وهي ما اصطلح عليه العقل السليم للعصر، أي ما يتوصل إليه الإنسان من معارف مؤقتة تنقلب إلى أضاليل تبنى عليها معارف، وتنقلب هذه الأخيرة مع العصر إلى أضاليل بسبب غزوها من طرف معارف جديدة أخرى تكون عقلا سليما لذلك العصر الجديد، وهكذا يكون العقل السليم لزمن ما، وهو مرحلة حتمية بين مرحلة عقل سليم ساد من قل، و عقل سليم يحل لا محالة لا حقا، وأسلم عقل هو في نهاية كل علم، ونهاية كل علم عند خالق العلوم وما تدرسه العلوم من أشياء.

وهذا ما جعل العلماء يخوضون نضالا مستمرا لنفي المألوف المنفي من قبل، وهو يعبّر عنه بقانون نفي بقانون نفي النفي وهو قانون التطور.

نفينا للنفي يكون بكلام جديد وكلام الله –ﷻ– ينفي النفي بنفس الكلام والجمل والتراكيب (يطور المعنى دون تغيير الكلمات والآيات) أقول هذا حتّى لا نفاجأ إذا رأينا لاحقا آيات قرآنية قد عبّرت عن عقول سليمة ماضية لا تطابق معانيها العقول السليمة للعصر، ويطوّر المعنى من

---

* نص محاضرة ألقاها الدكتور بمقر المجلس الإسلامي الأعلى-الجزائر

✍ دكتور في علوم الجيولوجيا .

عصر إلى عصر، وآخر تطوير يكون عند الله -سبحانه- أي خارج الوقت.

الخلق والزمن:

الخلق ارتباطا وثيقا بوحدة فيزيائية عجيبة سميناها الزمن، إنه لغز يمثل خليفة تجري أمامها شتى الحوادث، عدم وضع حدودية لأنواع أفعالنا عددا ومعنى ومردودا ناتج عن عدم تحديد الخلفية الزمنية لأعمالنا من حيث بدايتها ونهايتها وجوهرها.. لذلك كان الوقت لغزا جلب إليه العقول العلمية المفكرة، فجعلها تقحم نفسها في وحدة من أكبر الوحدات الفيزيائية تعقيدا وغموضا على الإطلاق.

بتطور العلوم والمعارف يدرك ارتباطه أكثر فأكثر بهذه الوحدة الزمنية المسيطرة عليه، والتي بدونها ما كان ليدرس علوما، ولا ليطور معارف، ولا ليكون في هذا الوجود أصلا، فكانت هذه الوحدة أم بقية الوحدات الفيزيائية الأخرى، فلا يمكن إدراك حركة أو سكون أو تسارع أو نشأة أو موت أو جاذبية أو قوة أو حرارة أو ظرف لفعل الخير أو الشر... أو حتى الوجود ككلّ إلاّ بها فكان الوقت أساسيا وأكثر غموضا وسيطرة وعلى كل شيء في حياة الإنسان، وكان لغموضه وسيطرته أكثر ما يعيره الإنسان من اهتمام.

المال الضائع معوّض مردود، والبيت المهدّم يُرمّم أو يُشيّد ويعود، والابن المفقود مولود، والوقت إذا انقضى يفقد كل شيء ولا شيء يعود.

هذه المعاني تجسّد فلسفة ذلك الّذي لا تعرف مسيرته إلاّ اتجاها واحدا، فلا يمكن مخالفته والسير عكس اتجاهه، ولا يمكن سبقه وتجاوزه

للعيش في مستقبله، ولا يمكن التأخر عنه حتى اللحاق به، فلا سلطان لنا عليه لنعطيه تسارعا أو تباطئا أو تغيير اتجاهه في اتجاه آخر غير اتجاه سهمه، فهو كالنمر لا يسير إلا في اتجاه واحد، يجرف كل شيء في طريقه، ولا يترك وراءه شيئا ليعيش في ماضيه.

بهذا نثبت لا رجعية الزمن، ويبرهن الإنسان على مستقبله اتجاه الزمن وعدم رجوعه بعدم رجوع كل ما مرّ عليه في حياته، وبعدم تأثير ما يقوم به الإنسان أعمال على طبع ومعاني الزمن في ماضيه، ولا يكون التأثير عليه إلا في مستقبله بحيث لا يمكن تكرار شيء وقع في الماضي والمثل يقول (الفرصة مرة في العمر) ذلك أننا لا نغيّر شيئا وقع في الماضي، أو نتمكن من إرجاع ما فات، ولا نرى بدقة ما سيقع في المستقبل أو نبقيه هناك، وكل ما هو آت آت، ويقضى الإنسان حياته كلها في حد دقيق وخيالي، حدّ محدود يفصل بين ما يتأسف على ذهابه أو يفرح لعدم عودته، بين ما يطمح إليه ولا يدري إن كان بإمكانه الظفر به أو يستحيل ذلك عليه ويعيش في حدّ بين الماضي المحدّد المعلوم، والمستقل الضبابي المجهول، وهذا يخلق الإنسان في حدّ البرزخ الخيالي الدقيق، وتنتهي حياته قبل أن يغادره أو حتّى قبل أن يشعر بدقته. لقد صار الآن واضحا أنه لا يخلو شيء أو حادثة من تأثير الزمن ولا يخرج شيء مادي عنه أبدا، ولذلك أدخله" *ألبرت أنشتاين*" كبُعد رابع في كل شيء كان من قبل يحدد بثلاثة أبعاد وقال أنه يتحدب كما يتحدب كل شيء يدخل تحت سيطرته، وهو يسيطر على الكون كله، وعلى ما يقع فيه، لذلك قال

"*ماجلان*" (لو أطلق سهم على خط مستقيم وفي اتجاه معين، فسيأتي يوم يعود فيه إلى الوضعية التي انطلق منها).

التفكير في خصائص الزمن هذه وفّر للعلماء مرتعا خصبا يدرسون فيه تأثيرات الوقت على الخلق والأشياء والظواهر والأشياء والأحداث، وكيف يتطور الزمن ويطوّر معه كل شيء حتّ وصلوا ببحوثهم إلى اكتشاف ما يسمى: انغلاق الزمن، أو الحلقات المغلقة لمسار الزمن، ومعنى ذلك: أن زمن هذا الكون الّذي نعيش فيه على تغيّره وعدم استقراره، وعلى تسارع البعض منه وتباطؤ البعض الآخر في بعض مناطقه (تبعا لسرعة الحركة وتأثير الجاذبية) وذلك انطلاقا من مبادئ النظرية النسبية وتطبيقاتها عليه.

الزمن ككل يتكون إذن من حلقات دوران مغلقة عظيمة المدى، بحيث تستغرق دورة واحدة من دورات هذه الحلقات —حسب التقديرات العلمية الحالية- ما يفوق مائة (100) تريليون سنة أرضية (مائة مليار المليارات)، تتكرّر هذه الدورات باستمرار من لا بداية وإلى ما لا نهاية، فليس له بداية تنطلق منها، أو نهاية تتوقف عندها، وما لا بداية ولا نهاية له، فعلمه والسيطرة عليه لله وحده، في هذا المعنى قدّم العالم الرياضي "*كورت جيديل*" سنة 1949 في جامعة برينسطون وبحضور "ألبرت *إنشتاين*" دراسة مستنبطة من معنى تحدب العالم في النظرية النسبية العامة، حيث قال بوجود خطوط مغلقة للزمن في أماكن معيّنة من الكون، معنى ذلك أنّ الكون الّذي نعيش فيه يدور في حلقات زمنية مغلقة تعيده كل مرة وضعيته الأولى التي انطلق منها في الدورة التي سبقتها، وتتكرر هذه

الدورات الواحدة تلو الأخرى دون توقّف أو انتهاء كما قيل أعلاه من لا بداية وإلى ما لا نهاية، وتكون هذه الدورات هي دورات المجرات الخارجية حول نفسها، أو دورات الكون حول نفسه.

هكذا أفتح قوسا لنتذكر معا حركات الوجود الأرض تدور حول نفسها بسرعة =0-0،46 كم/ث حسب موقع نقاط سطحها عليها، وتدور حول الشمس بسرعة 29.8 كم/ث في دورة تقدر بـــ: 365.25 و8 دقائق، الشمس تدور حول نفسها وتدور حول مركز مجرة درب التبانة بسرعة 230 كم/ ث، وتقطع دورة في يوم فلكي مقداره 250 مليون سنة.

مجرة درب التبانة تدور مع المجموعة المجرية المحلية بسرعة تفوق 390 كم/ ث، والمجموعة المحلية تدور مع مجموعات أخرى حول مركز لها، وهكذا حتى بلوغ الدورة الكونية وقدرت بحوالي 100 تريليون سنة أرضية.

نشأة الكون و تمدده في الزمن :

من المعلوم لدينا اليوم، وحسب علماء الجيولوجيا والفلك، أن الكون الّذي نحن فيه (في دورتنا الزمنية الحالية) والّذي يُدعى المجرات الخارجية، كان قد انطلق من انفجارمادة شديدة الكثافة والحرارة وتدعى الخاثرة، أو خاثرة البلازما، وتكون هي الّتي عبّر عنها القرآن بالدخّان في قوله تعالى: ﴿***ثم استوى إلى السّماء وهي دخان فقال لها وللأرض ايتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين***﴾ فصّلت 11.

كانت السماوات بما فيها وما بينها –كما تظهر لنا حاليا ارتقاء– ونحن في الحقيقة لا نرى السماء الآن ولكننا نشاهدها ما كانت عليه في

الماضي البعيد جدا) أي كتلة واحدة ملتحمة ببعضها، ولم يكن آنذاك كما في تصوراتنا الحالية معنى أو تصور للسماوات والأرض وما بينها من فضاء ملؤه المادة والأجسام السابحة فيها: نجوم –كواكب – توابع – كوزرات – ثقوب سوداء، ومختلف أنواع المادة التي تملأ الكون، وبعد بلوغ (10^{16}) كلفن وقع الانفجار العظيم، (big bang) ونتج عنه الكون الذي هو الآن في حالة تمدّد مستمر، مبتعدا عن بعضه بسرعة تقدر (حسب مرصد بامير) بـــ: 60 ألف كم/ث وإذا وصلنا إلى هذا الحد من التفكير انعدم الشعور لدينا بمن يبتعد عن الآخر؟ نحن نبتعد؟ أم يُبتعدُ عنه؟

انفجار عظيم مهول big bang جعل الكتلة تنفلق، وانطلقت من جرائه كل هذه الأجسام الكونية وكل الأجسام المادية، والتي يعبّر عنها حاليا بالارتجاجات المادية، أو الارتجاجات السابحة على سطح المادة، وقد يكون انطلاق المادة كلها مع أمكنتها وأزمنتها نتيجة من نتائج هذا الانفجار لأنه في الواقع لا مكان ولا زمان إلا للمادة، ونستنتج من هذا أنه لا مكان ولا زمان قبل وجود المادة أي خارج هذه البلازما، والزمان والمكان هما من مكونات المادة، ولا يتكونان إلا لها، وأعتقد أن هذا الانفلاق هو المقصود في قول –ﷻ– ﴿***قل أعوذ برب الفلق***﴾ الفلق 1.

يفترض أن الوجود كله، أو الوجود ألقيت منا والّذي نوجد فيه ونسكنه، والّذي أطلق عليه اسم السماء الدنيا أو المجرات الخارجية، وربما كل الأكوان السبع، (السماوات السبع) وما فيهن وما بينهن كانت ممثلة في هذه الكتلة قبل انفجارها، ولا شيء غيرها، ولا يعلم بما كان في محيطها أو خارجها إلاّ خالقها، بحيث يعتقد أنه لم يكن يحيطها فراغ أو

يحفها زمان، وكل ما لا مكان ولا زمان له، فالله وحده أعلم به، وقد عبّر الله -ﷻ- عن انفجار هذه الكتلة أيضا -بالفتق- إذ قال: ﴿*أو لم ير الّذين كفروا أنّ السّماوات والأرض كانت رتقا ففتقناهما..*﴾ الأنبياء 30.

خلق الحياة على الأرض: هكذا تكوّنت الأرض من المادة الناتجة عن الانفجار العظيم، وقد احتاجت إلى يومين، يوم أول لتبرد وتتجمد قشرتها، ويتكوّن الغلاف الجوي ليمنع قنبلتها بالشهب، ويحميها من الطاقة الكونية الجبارة، ويقدّر هذا اليوم بحوالي 2.8 مليار سنة، ويوم ثان لكل التطورات الجيولوجية والحياة عليها وهو يتواصل حتى الآن، بدأت من بدايته العمليات التكطونية وبدأت تستقر قارات الأرض، وترتفع وتنخفض مناطق الجيوسينكلينال منها، واتحدت ذرات الأكسجين مع ذرات الهيدروجين، وتكوّن الماء وتجمّع في المنخفضات مكوّنا بحارا، وبدأت الحياة الحيوانية في البحار والنبات على اليابسة، وهذا كله في اليوم الثاني الّذي نحن فيه ويقدّر حتّى يومنا هذا بـــ 1871 مليون سنة، ونحن -في اعتقادي- لا زلنا في بدايته وقد عبّر الله ﷻ عن هاتين المرحلتين أو الدورين بقوله: ﴿*قل أئنكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا، ذلك ربّ العالمين*﴾ فصّلت 9، قسّم اليوم الثاني لأهميته إلى أربعة أطوار، تهيأت الأرض فيها لاستقبال سيّد الأرض -الإنسان- كما قال ﷻ: ﴿*وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها و قدّر فيها أقواتها في أربعة أيام*﴾ فصّلت 10.

تقلّص الكون وانتهاؤه

من المفروض أنه سيأتي يوم فيه تباطؤ توسّع الكون على أن يتوقف عن التوسع، ويعود ذلك إلى الانضغاط شيئا فشيئا حتّى ترتطم كل الأجرام السماوية ببعضها ويتهدّم الوجود كله ويندثر، ويلتحم ببعضه مرة أخرى في كتلة واحدة ليعود كما كان من قبل رتقا. أظن أن هذا المعنى هو الّذي أقسم به الله ﷻ إذ قال: ﴿**والسّماء ذات الرجع**﴾ الطارق 11، إذن يقترب الكون من بعضه في تصاعد سريع للضغط والحرارة حتّى ينصهر كل شئ، يقول الله تعالى ﴿***يوم تكون السّماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن***﴾ المعارج 8-9، ثم يرتطم ببعضه يقول الله تعالى: ﴿***وحُمّلت الأرض والجبال فدكتا دكّة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة***﴾ الحاقة 14-15، ومن هنا نفهم معنى الواقعة في قوله تعالى: ﴿***إذا وقعت الواقعة***﴾ الواقعة 1، ويقول ﷻ تعبيرا عن هذا الارتطام المهول: ﴿***القارعة ما القارعة، وما أدراك ما القارعة***﴾ القارعة 1، ويبلغ الكون مرّة أخرى كثافة وحرارة رهيبتين.

وهكذا يرتطم كل شيء ببعضه ويطوي الإله الوجود فيصير صغيرا نسبيا، منضغطا منصهرا حارا، وبذلك تكشط السماء لتفرغ من المادة، وتطوى لأنها لا تبقى بدون مادة، أي تذهب بذهاب المادة التي جمعت وارتطمت ببعضها، جمعت كلها مرتطمة ببعضها، جمعت كلها ملتحمة في كتلة واحدة ذات جاذبية ذاتية لا تتصور قوتها، وحرارة لا تقدر شدتها، قال الله تعالى لتعريفنا بهذه الحال: ﴿ ***وإذا السّماء كُشطت، وإذا الجحيم سُعّرت***﴾ التكوير 11 -12، وقال أيضا: ﴿ ***وما قدروا الله حقّ***

قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسّماوات مطويات بيمينه﴾ الزمر67، وقال أيضا: ﴿***يوم نطوي السّماء كطيّ السّجل للكتاب، كما بدأنا أوّل خلق نعيده***﴾ الأنبياء 104، وهذا ما يستنتج مما توصل إليه *"البرت أنشطاين"* حيث يقول: *"إذا ذهبت المادة فلا يبقى بعدها مكانها ولا زمانها، وهذا أيضا هو معنى طي السماء أو طي السماوات"*.

يقول بعض علماء العلوم العصرية يتوقف العلم بمجرد أن ينضبط الكون ويرتطم ببعضه ويندثر ولا نعرف ماذا سيكون، وماذا سيفعل الله بالعالم المادي بعد ذلك.

نحن العلماء الباحثون المؤمنون بالله، أصحاب العقيدة الراسخة التي رسّخها العلم، نعلم اليوم ممّا قاله الله ﷻ من حقائق ناصعة وأكّدها العلم فيما توصل إليه من اكتشاف الدورات الزمنية المغلقة، نعلم كيف نشأت دورتنا الحالية، إذا كانت السماء دخانا، فأتى الله بها وبالأرض وجاءت طائعة كما أراد الله أن تكون وكانت السماوات والأرض رتقا، ففتقها الله سبحانه وتعالى بالانفجار العظيم، كما قال ﷻ في الآيتين السالفتين (فصلت 11 والأنبياء 30)، وبالمقارنة بكيفية وطريقة تكوين دورتنا الحالية يمكننا تصور الكيفية أو الطريقة التي ستنشأ بها الدورة الزمنية القادمة ، دورة اليوم الآخر، وهذا طبقا لقوله تعالى: ﴿***كما بدأنا أوّل خلق نعيده***﴾ الأنبياء 104، وقوله: ﴿***كما بدأكم تعودون***﴾ الأعراف 29، وغير ذلك من الآيات الّتي تدلّ على أن الله ﷻ يعيد كلّ شيء كما خلقه أول مرة، و قوله: ﴿***إذا السّماء انفطرت***﴾ الانفطار 1.